الفصل الثاني عشر
أماني عمر صندوقة

إهداء

إلى كل من كان ملهمي.. كل من قرأ حروفي فصفق لي وشجعني..

هدى وأخواتي..

رويدا وحنين..

هبة ورنا..

بسمة وبيان..

شكراً لأنكن ظللتن ملجأً لكلماتي حين لم يقرأها أحد..

****

أحببته.. فهل يعود؟

جَلستْ ذاتَ مساءٍ وَحِيدةً تقلِّبُ هُمُوماً اعْتَصَرَتْ رُوْحهَا، أَرَادتْ أنْ تَبُثَّ للسّماءِ ما كانَ يُرَاوِدُهَا منْ مشاعرَ وَمَا يَسكُنُهَا مِنْ هُمُوم، رَدَّدتْ فِي خَلَجَاتِهَا " هلْ تُرانا نلتقي أمْ أنها.. كانَتِ اللُّقيا على أرض السَّرابْ". جاءَهَا ضاحكاً وكأنَّهُ يسخرُ منْ حزنِها على فراقِهِ، إذنْ ما زالَ يجيدُ الضَّحكَ بعدَ كلِّ ذلكَ الغيابِ! ظنَّتْ أنَّ روحَها باتَتْ فِي هوسٍ عظيمٍ، هوسٌ يرسمُ صورَتهُ حيثُما أشاحَتْ بنظراتِها لكنَّهُ هو بضحكتِهِ البسيطة وشامةً متربعةً فوقَ خدِّه الأيمن، غمازةٌ حضرَتْ ذاكَ الوجهَ البهيَّ فأتمَّتْ مظاهرَ الحسنِ فيهِ، جلسَ مقابلاً لها يسألُهَا كيفَ تمكَّنَ الحزن منها هكذا! رآها رمادَ جسدٍ ملقَى في مهبِ الرّيحِ يميلُ حيثُ تميلُ ودموعٌ خانتْها فسقطتْ ثمَّ ألقَتْ قوّتها الكاذبةَ في وادٍ سحيق، نظراتٌ باتت تتوسَّلُ إليهِ ألّا يذهبَ فعَلِمَ حينَها أنّ الزّمَنَ كان أضعفَ بكثيرٍ من أنْ يَنزِعَهُ منها شَرعتْ تردِّدُ أذكارَ المساءِ علَّ الذكرَ يلقِي ملامِحَها الحزينةَ عن عينيهِ قليلاً: اللّٰهُمَّ إني أسالكَ لهُ العفوَ والعافيةَ.. في دينهِ ودنياه وأهلهِ ومالهِ، اللّٰهُمَّ استُر عوراته وأمن روعاته،

لم تكملْ فقد نظرَ إليها نظرةِ المغشيِّ عليهِ من الموتِ وهلْ تعمَّقَ فيها ليصلَ إلى مسبحتِهَا وورد أذكارِها! تساءلَ مع نفسهِ أينَ هوَ منْ ذاكَ الحبِّ الخفيِّ؟ الحبُّ الذي لا يرفعُ لهُ صوتٌ إلا في أحاديثِ السماءِ، همَّ بالخروجِ عنها حاملاً وزرَ ذنبٍ لم يقترفْهُ أو قد يكون، لاحقتْهُ نظراتُها تدعوهُ إلى بقاءٍ قد يروي صحراءَ روحِها الجرداءَ فينزلُ عليهَا كما الغيثِ ليحيي الأرضَ بعدَ موتِها.

صاحَ بهِ صدى قلبِها مودعاً: غبتَ عنِّي ثلاثَ سنواتٍ عجافٍ ، وبصبري كنتُ يعقوباً، انتظرتُ أن أشمَّ ريحَكَ ويُلَقى عليَّ قميصُك فيرتدَّ إليَّ بصرِي وما عادت بالأبصارِ غيرَ قميصِكَ قصمانُ، غادَرَها مع وقوعِ كأسِ قهوتِها فاستفاقَتْ ، نظرَتْ حولَها فلمْ تجدْ لهُ أثراً وهَرعتْ إلى كلِّ شوارعِ الحيِّ باحثةً عنهُ ، علمتْ أنَّ وسواسَ وجودِهِ حولَها ما زالَ يلاحِقُهَا ، جلستْ على طرفِ الطريقِ باكيةً حظَّها العاثرَ وفراقَهُ المرير، ذلك الفراقُ الذي قُدِّرَ عليْها حتى بعدَ أن جادَ عليها النومُ يوماً بطيفٍ منهُ ثمَّ سُرعانَ ما أفاقَتْ بعدهُ لكابوسِها الذي تمنَّت لو أنَّها لم تكنْ يوماً جزءاً منهُ، كانَ حُبَّها الأول الذي سَرقَ مِنها كيانَها وكينونَتَها، منذُ أنْ أحبَّتهُ أعلَنتْ للدُّنيا يومَ ميلادِها حتّى

أصبحتْ تحتفلُ بذِكرى يومَ لقاءِها به في كلِّ عامٍ وكمْ ودَّت لو أنَّها تُغيّرُ تاريخَ ميلادهِا في كلِّ أوراقِها الرّسمية لتاريخٍ جمعَها بهِ ومضى على ذاكَ العهد أربع سنواتٍ أو زِد عليهنَّ قليلاً. الثالثُ والعشرونَ من ديسمبر حيثُ كانتْ تَختبئُ أولى ضحكاتِها من بعد موجةِ الفقدِ العارمةِ التي اعترتها

لم تجدْ منهُ ملجأً إلا أن تكتبهُ في حروفِها وبعضُ الحروفِ إن وصفتْ، عَجِزتْ، شُلَّت معانِيها وتَاهت في غياهِبِ الجُبِّ كلماتها، رجلٌ مثلهُ يأبى أن يُنسى أو يَرحل، يَرفضُ تماماً أن يَتواجدَ على رفوفِ الذكرياتِ ، رجلٌ مثلهُ خُلقَ ليُوجدَ و ليقفَ شامخاً فوقَ كُلِّ اعتبارٍ وكلِّ حضورٍ فلا يجودُ لها الزمانُ من بعدهِ بمثيلٍ، تمسَّكت به حتى قُطّعت أوداجُها وبحثت عنهُ في كلِّ شيءٍ ، كانت تراهُ في انعكاسِ اضواءِ السّيارات و في أزقةِ الشوارعِ وفي وجوهِ المارّة فلكلّ مكانٍ ذكرىً وحكاية، في مرتفعِ الجبلِ حيث كانت تراهُ دوماً ، كانت تشاطرهُ أحلامها وأمانيها، كان يُحدّثها عن الألم فتحدّثهُ عن الأمل يروي لها خذلانَ الرّفاقِ وبؤسَ الحياةِ وكانت تودّ لو أنها تستطيعُ سَحْبَ همومَ قلبهِ إلى قلبِها و أن تحملَ عنه شطراً من حزنِه، بل

جلّهُ وكلّه ولا ترى غيابَ بسمته أو انطفاءَ روحِهِ، كانت تخافُ عليهِ أن تَحضرهُ فتاةٌ لا تلتفتُ لشرودِ بصرهِ ولا ذبولِ عينيه، أن تأتيهِ فتاةٌ لا تحلمُ بهِ سوى على حصانٍ أبيض وكانت مستعدةً لأن تحملهُ في قلبها طولَ عُمُرِها ،فتاة تنتظره لتتباهى به أمام رفيقاتها وأن يكون مجرّد تمامٍ لشيءٍ ناقصٍ في حياتها ، وهو الذي كان حياتها ، فتاةٌ تريدُ أن تعيشَ معه الفرح وتتركهُ وحيداً في غياهبِ الحزنِ المظلمةِ وتبحثُ عن غيرهِ إن لم تعدْ ترى فيهِ نوراً وهي التي كانت تودُّ لو أنها تُشعلُ في نفسها خوفاً عليهِ من ظلمةِ الطريقِ ووحشتِها، ولدته من رحمِ روحها فكانت حنونةً عليه كحنانِ الأمِّ على ابنها، ذكرتْ في نفسها أغنيةً تعرفُها جيداً " هو حناني عليك.. قساك حتى عليا "... بعض الودِّ لا يقابلُ الا بالودّ وبعض الودِّ يقابلُ بغيابٍ طويلٍ دون مبررٍ أو أسباب، وقد نالت نصيبها من النوعِ الثاني.

عادت إلى بيتها محملةً بأذيالِ الخيبةِ المريرة، كان قلبُها يبهتُ يوماً بعد يومٍ دونَ أن يشعرَ بها أحدٌ ممن حولها، صوتُ ضحكاتِها كان يقرعُ في قلبها طبولَ النهايةِ ويرتدُّ صداهُ على من حولَها فيظنون أنَّ السعادةَ قد جعلتْ لها

منها حظّاً ونصيباً مفروضاً، عزّةُ نفسِها وشموخُها تأبيان نظراتِ الشَّفقةِ التي قد يُلقي بها أحدُهم على أعتابها مجاملةً ونفاقاً ثم يُولّي مغادراً، كانت تعلم أنه باقٍ فيها لا محالةَ وكان عليها أن تتأقلمَ مع هذا الغيابِ الأبديِّ بصبرِ أيوب ولكن لن يكونَ هناك مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ يطفئ ناراً تلتهبُ فيها، وحيدةٌ هي وتعلم جيداً أن هذه الوحدةَ باتت مُؤنسها حتى جافى النومُ عينيها وأبدلها بستائرَ سوداءَ تُحيطُهما بعناية ولم تزلْ تقلِّبُ في ذاكرَتِها أياماً كان وجودُه بها يجعلها كفراشةِ فرحٍ، ها هي اليوم تبكي على أطلالهِ وقد باحت فيروزُ بسرِّها قائلةً : " بعدك على بالي.. يا قمر الحلوين.. يا زهرة تشرين.. " خسارتُك كانت قد أطاحت بعدّادِ عُمرِها وكتبت لها شهادةَ وفاةٍ بعمرِ الواحد والعشرين، نعم تُوفِيت رُوحُها في آخر لقاءٍ جمعها بك وهل لا تصحُّ شهادة الوفاة إلا بإقرارِ مؤسّساتِ الدولةِ التي لا تأبهُ إلا لإدراجِ اسمها في عدّاد وفياتِ الشّبابِ! كم من متوفًى يسيرُ على أقدامه ولا تدبُّ الحياةُ في جسدهِ إلا ببضعِ ليتراتِ دمٍ تجولُ في جسدهِ دون أن تلتفتَ للوقف المعنويّ للقلبِ، فما نفعُ قلبٍ لا ينبضُ لأجلكَ أنتَ يا من اتّكأتَ على وُجودِكَ في وُجودِها، كلما تذكرت تلك

الضحكة التي كانت تخرج من أعماقها معك تشتاقُها كثيراً، تلك الضحكة التي لم تعدْ تزورُها وكأنّكَ وضعتَها في حقيبتك قبلَ أنْ تغادرَ ونسيتَها هناك فلا تلتقي بها أبداً. كانت لك كقصبةِ الناي وكنتَ الوحيدَ الذي يتقنُ العزفَ عليها ثمَّ تركتَها على رفٍّ رثٍّ قديمٍ، نعم ليسَ كلُّ ما يتمناهُ المرءُ يدركُهُ، وقد عَنُوا بها كثرةَ الأشياءِ وكنتَ أنت كلَّ أمانيها وهي تعلم أنها لن تدركك مهما كان لحاقُها بطيفكَ سريعاً، لم تسْتطعْ "جوليا بطرس" أنْ تقنعها حين قالت: " على أرض الوطن المحروس رح نتلاقى يوماً ما " فعلى الرغمِ من أنّ هذا العالمَ يَصغرُ شيئاً فشيئاً ويُكذِّبُ من قالَ حتى أن الجبالَ لا تتلاقى، اقتحمتها ثقةٌ عارمةٌ أنّ الزمانَ بخيلٌ، وأنّ احتمال اللقاء ضئيلٌ، بل معدومٌ ومستحيل، فلا أنت تركتَها للأيامِ لتشفيَ جراحَها ولا أقبلت عليها فأحيَيْتَ ما قد توارى فيها من فرحٍ ، قد يكون إصرارُكَ على الذهابِ بغيرِ حولٍ منك ولا قوة ولكنّ حضورَك الطاغِي لم يكنْ على قدرٍ من المرونةِ ليتقبّل الهجرةَ معك حيثُ كنتْ بل بقيَ كظلالٍ لكلِّ من حَظِيت يدهُ للسلام عليك ولكل من نال لسانه شرفاً في كلامه إليك، كيف تسنّى لكَ أن تكونَ ظالماً دون أن

تعلم، وهل كنت تعلم؟ ألم يستطعْ حدسُك القويِ أن يقرأَ قسماتِ الحبِّ في عينيها ولا أن يدركَ ما خُفيَ في خباياها. ألم تستطعْ أن تقرأَ نفسَك في كلماتِها حين كتبت لك " أو كالذي رأى يوماً ابتسامتكَ ففُتنت بها روحُهُ وأُسِرَ معها القلبُ والنظرُ، ابتسامةٌ ليست كأيِّ ابتسامةٍ بل ابتسامةٌ الحياةِ هي ومركبُ السعادةِ يرسو دوماً على شواطِئها، يقولُ محمود درويش على هذه الارض ما يستحقُّ الحياةَ وأقولُ أنا ابتسامتك فعلاً هي ما تستحقُّ الحياة ثم خَتَمت رسالتها بقلبٍ أحمر، أوكنتَ تظنُّ فعلاً أنها تريدُ أن تجودَ عليها برأيٍّ منك فيما كتبتْ؟ ألم تستطعْ أن ترى نفسكَ بين سطورِها حيثُ لا أحدَ غيرُك تُقرِئُه كلماتها تلك! ... بلى كنتَ تقرأُ وتجهلُ، تَعلَمُ ولا تعملُ كأنَّك حين تقابلُها تفقدُ بصرَكَ والبصيرة، كنتَ تغزلُ غمامةً سوداءَ أمام عينيك فلا تعودُ ترى للنور مسلكاً وطريقاً.

غبتَ وطال الغيابُ ولن تكون كالذي هجرَ ثم عاد نادماً وأناب وقد عَلِمتْ ذلك وأيقنتهُ في قرارةِ نفسِها، غبتَ وطال الغيابُ والهموم تتكاثفُ في قلبها كالسَّحاب حتى ملّها الحزن وتوسّل إليها أن تفارقهُ وتهجرهُ هجراً جميلاً، هي ترى ذلك أمراً بعيداً وقد كان فرجُ الله إليها قريباً،

استيقظت ذاتَ يومٍ قُبيل صلاةِ الفجرِ مع هروبِ النومِ من جفنِ السماءِ وقد باتَ القارئُ يتلو عليها وكأنَّ الله أرسلَ إليها رسالةً تنتشلها من قعرِ الهموم " لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسرٍ يسرا " ..

كان محتوى الرسالةِ واضحاً وصريحاً، الحزنُ لن يكونَ أقوى منها لأنّ اللهَ لا يكلّفُ نفساً إلا وُسعها ستحاولُ أن تهزمهُ وستحفظُ ذاك الحبَّ في قلبها حتى يجعلُ اللهُ لها من بعد ذلك فرجاً ومخرجاً، أقامت صلاتها ولكن هذه المرة بقلبٍ خاشعٍ متذللٍ داعٍ إلى الله أنْ ينتشلها من بئر الحزنِ كما أخرجَ يوسفَ من غيابة الجبِّ حتى جعلهُ عزيزَ مصر، سألته أن يرزقَ قلبها عفّة يوسفَ حين قالَ أمام أكبر ملذّاتِ الدُّنيا لامرأةٍ ذات منصبٍ وجمالٍ " معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون " وكان لها من الاجابة الحظُّ الوفير حيث أن نوراً قد أُشعلَ في قلبِها من جديد ارتدَتِ ثيابَها وخرجَت من منزلِها مسرعةً إلى مكانٍ يحبُّه قلبُها حتى وصلتْ إلى تلكَ الشجرةِ التي أنصتتْ إليها وكانت لها مخبئَ أسرارها حيثُ لم يكنْ لها من رفيق، نظرتْ بذهولٍ وقد ظنّت أنها عادتْ إلى موجةِ الهوسِ التي كانت ترسمُ لها صورهُ أينما تحلُّ خطاها

وتمشي، أغلقتْ عينيها بكلِّ عنايةٍ ثم ناجتْ الله مرةً أخرى أن ينتزعَ صورتَه تلك التي لا تفارقُها ثمَّ عادتْ تنظرُ من جديد، إنه هوَ بلى هوَ ولا أحد غيرُه يحملُ في يديهِ باقة زهور حمراء كالتي تحبها تماماً وفي عينيهِ نظرةُ ألمٍ وندمٍ كأنَّهُ كان يخبرها بعينيهِ " ها قد عدّتُ يا جميلتي، عدّتُ وإن طالَ غيابي عنك فقد عدْت، عدُّت وكلي ثِقَةٌ بأنَّ قلبك الرَّحب أكبرُ من أنْ يخذِلَني، كنتُ أقسو عليكِ فتغُضّينَ الطرفَ صامتةً، زرعتِ لي في طريقي حدائقَ الورودِ فأقطِفُها وأهديها لغيركِ. هربتِ إليّ منّي ومن كثرةِ حديثي، أحبَّتني تلكَ وتلكَ أهدتْني، رأيتُ في عينيّ إحداهن دمعةَ حُبٍّ وفي الأخرى لفتةَ إعجابٍ، وذاتُكِ صمّاء لا تبوحُ بشيءٍ ممّا زرعتهُ فيها من خِذلانٍ وعتاب، كنتِ أكبرَ من أن تطالُكِ يدُ الغِياب في حياتي، ظننتكِ رفيقةً وكانَ عليَّ أن أودِّعها لأختار بعنايةٍ شريكةَ عمري التي لن ترضَ بوجودِك في حياتي حتّى كُنّا على عهدِ الصداقةِ فقط ولا شيء آخر ولكنّني علمتَ ألّا أحد سواكِ في كلامهِ كان صادقاً بل كنت صادقةَ الأفعال أكثر، ها أنا عدت وكلّي أملٌ أنّك ستبقين معي وإلى جانبي حتى ألفظَ آخرَ الأنفاس، عدتُ وقلبي يعلمُ حنانَ قلبكِ فهل إلى مردٍ

من سبيل؟ يكون دواء للعليل ويزيلُ عنه حمله الثَّقيل، عدّتُ إليكِ يا رفيقةَ روحي عودةً لا يتلوها رحيل"، ابتسمتْ وابتسمَ قلبها وتذكَّرت أوَّل لقاءٍ جمعهما وقد شابه الشُّعور هذا اليوم ذاك الذي أنار قلبها يوماً.

استجابةُ دعاءِها كانت أقربُ إليها من أن يرتدَّ إليها طرفُها ولكنّنا بشرٌ نستعجلُ الفرحَ ونودُّ لو أن بيننا وبين الحزنِ أمداً بعيداً، الحزنُ الذي بدونِه لا معنى واضحَ للفرح كما الأبيض الذي لا يعرفُ صفاؤُهُ الا برؤيةِ كآبةِ الأسود وظلامه، فالحمد لله على ما كان وما سيكون، الحمد له عدد الحركات والسكون..

" لعلّها لامسَت قلبَ أحدكم فوجدَ فيها أملاً بعد أن أطبقتْ عليه الدُّنيا سوادها"..

****